



مع دراسة تطبيعية  
على  
سياسة المغفور له

الملك محمد عبد العزيز

بقلم: الدكتور بكر عمر العمري

# القبليّة

## ونظريّة الذوبان الاجتماعي

ن

القبليّة، كظاهرة ومبدأ من اهتمام الدارسين والباحثين نصيباً كبيراً من الدراسة والبحث خلال العقود الثلاثة الماضية. ويتضح للدارس في تاريخ «أ» بسمى بأفراض مبدأ القبليّة "The Ills of Tribalism" أن القيادات السبابة والعلمية للكثير من الدول الأفريقيّة بوجه خاص قد وجهوا اهتماماً كبيراً أو ظاهراً إلى دراسة هذه العلل. ومحاولة إيجاد علاج لها. ويرجع هذا على الأغلب إلى ظروف أفريقيا التي ورثت الأنظمة السياسيّة للقوى الاستعماريّة الأوروبيّة قد مهدت الطريق أمام هؤلاء الزعماء الانفارقة لكي يسعوا إلى إيجاد وسيلة للتعايش وللحياة بين مجموعاتهم الوطنيّة المختلفة. وهي في الواقع مهمة صعبة وشاقة للغاية لشاعر القبليّة مرض مزمن وهي نجد بالإضافة إلى أزمنتها هذا تشجيعاً من بعض زعماء هذه

الدول الذين يحنون فالدنهم ومصلحتهم الخاصة في الآراء المشاعر القبلية لمواطنهم. هذا كانت ظاهرة القومى السباسة مظهرًا عامًا للحياة الاجتماعية في هذه الدول التي وجدت في ابنائها أنفسهم معرقًا من معوقات بنائها القومى نتيجة تمسكهم بالمصالح الخاصة التي يزكها في أنفسهم تعصبهم القبل.

### القبلية في الدول النامية :

إن اختلاف معدلات النمو بين الاقاليم المتقدمة والاقاليم النامية في غالبية مناطق أفريقيا وفي المناطق القبلية الاخرى يتضح أساسًا في التباين الاقتصادي الناجم عن الفوارق الاجتماعية بين هذه الاقاليم. وتعتبر العوامل الطبيعية من الاسباب الهامة لهذا التفاوت بسبب عدم استطاعة بعض هذه الاقاليم استغلال مواردها استقلالًا كاملاً. كما تعتبر العوامل السباسة أيضًا من أسباب الانهيار الاقتصادي والاجتماعي بين هذه المجتمعات، إما لعدم التجانس الناتج عن التمسك بالحياة القليلة ذات التقاليد والعادات — وأحيانًا اللهجات — المختلفة أو نتيجة لعدم اندماج الهياكل الاجتماعية بسبب الضغوط الخارجية والداخلية حتى في داخل الدولة الواحدة. يضاف إلى هذا عامل هام هو سوء توزيع النشاط الاقتصادي وانخفاض مستويات المعيشة وانتشار الامراض.

كل هذه العوامل مجتمعة تزيد من صعوبة تحديد مفهوم ما نحن بصدد محاولة وضع مفهوم له وهو القبلية ... فن هنا نشأت الصعوبة في تحديد هذا المفهوم ونشأت التضارب والتخبط وعدم الاتفاق بين الدارسين والباحثين في تعريف ماهية القبلية. ولكن يمكننا أن نجمع هذه الدراسات وهذه المحاولات في ثلاث مدارس قطعت كل منها شوطًا لا بأس به في تعريف القبلية :

أولاً : ترى أن القبلية عبارة عن حيلة يستخدمها البرجوازيون Bourgeoisie من أجل جعل حياتهم أكثر سعادة وأكثر رخاء. حيث يجدون مصلحتهم في الابقاء على القبيلة بأوضاعها الراهنة<sup>(١)</sup>.

ولانتهيا : وهي المدرسة التي يقودها الاستاذ الأفريقي آرشى مافيجي وتعرف القبيلة على أنها فكرة قام بتسويقها علماء الاجتماع الغربيون ثم وظفت كأيديولوجية

تخدم المصلحة الشخصية لمجموعة من القادة الأفريقيين<sup>(٢)</sup>.

أما ثالث هذه المدارس فترى أنها تمثل حقيقة الوضع القائم في أفريقيا تلك الحقيقة التي حاول بعض الزعماء الافارقة تجنبها بغير مبرر<sup>(٣)</sup>.

### مواصفات الحياة القبلية :

غالبًا ما تتكون القبيلة من مجموعة كبيرة أو صغيرة من الأفراد تجمعهم مواصفات واحدة — فهم جميعًا توجد بينهم درجة عالية من القرابة كما أن الأرض التي يسكنون عليها غالبًا ما تكون لهم جميعًا وليست ملكًا لأفراد منهم وقد يسمى هذا النوع من الملكية الملكية العائلية والقبلية للأرض.

وتتم العلاقات بين أفراد القبيلة بصفة مباشرة أي عن طريق الاتصال المباشر — وهي في علاقاتها بالمجتمعات الخارجية تكاد تكون منزلة نتيجة لافتقارها إلى طرق المواصلات أو وسائل الاتصال اللازمة، ولهذا غالبًا لا يعرف الكثير من أفراد القبيلة إلا مجتمعهم ولا علم لهم بشئون المجتمعات الأخرى كما أن تبادل الخبرات بين أفراد القبيلة وأفراد القبائل الأخرى يكاد ينعدم. ومعنى هذا أن «حضارة» هذه القبيلة تكون محلية تمامًا ومن إنتاج أفرادها دون أن تؤثر عليهم عناصر الحضارات أو المجتمعات أو القبائل الأخرى إلا فيما ندر.

كما يسيطر على مجتمع القبيلة نوع من العادات التي يكسبها أفرادها على مر الزمان لمواجهة احتياجات معينة يرى قادة القبيلة ضرورة تنفيذها، وقد يكون بعضها غير منطقي أو غير مسبب إلا أن أفراد القبيلة جميعًا ملزمون بممارسة هذه العادات والتقاليد نتيجة معيشتهم في حدود ونطاق مجتمع القبيلة رغم ما قد يكون من عدم اقتناع البعض بها. ولكن الأساس في اقتناع أفراد القبيلة بهذه العادات والتقاليد هو التجربة والممارسة العملية، ومن الصعب بعد ذلك تغييرها أو التعديل منها أو تهذيبها نظرًا لعدم احتكاك أفراد القبيلة بالمجتمعات الأخرى والبطء الشديد الذي يتميز به التغيير الاجتماعي في مثل هذه المجتمعات البدائية وتعود أفرادها على ممارسة هذه العادات دون تغيير أو تطوير فيها تقلًا عن الأجداد والآباء.

ومن هنا نستطيع القول إن أفراد القبيلة الواحدة تصبح ثقافتهم واحدة وعاداتهم وتقاليدهم واحدة وقد يمارسون مهنة واحدة، سواء كانت الزراعة أو الصيد أو الرعي ومن هنا تنشأ صفات عديدة لتجانس أفراد القبيلة الواحدة وينشأ فيها نوع من التوزيع البدائي للعمل وبخاصة بين الرجال والنساء.

وتغلب القيم الروحية في مجتمع القبيلة على القيم المادية فأفراد القبيلة غالباً متدينون وهم يربطون جميع الظواهر الاجتماعية والمادية التي تمر بهم بالمعتقدات الدينية وتعتمد الروابط والعلاقات الاجتماعية التي تنشأ بينهم على العرف والتقاليد والقيم الدينية وعلى الاتفاق الشفوي وكلمة الشرف. أما التخلّف الحضاري في حياة القبيلة فهو ناشئ عن تغلب الجانب غير المادي على الجانب المادي وقد يساء فهم بعض المعتقدات الدينية ولهذا غالباً ما تنشأ الحرافات والبدع والتزمت ومحاربة كل جديد.

**ومصدر النظام في القبيلة هو العادات والتقاليد** فكلمة كبير السن لها تقديرها واحترامها من الجميع وهو قضاة القبيلة إذا ما نشأ خلاف بين أفرادها وكلمة الشخص القوي كبير السن منهم هي النافذة.

### الزعماء الأفارقة وتحديد مفهوم القبيلة :

وقد استمرت هذه الأوضاع قائمة بالنسبة للحياة القبلية في أفريقيا حتى في القرن العشرين . ورغم ظهور قيادات واعية ومتعلمة ومثقفة لبعض هذه القبائل وبخاصة في أفريقيا، إلا أن تعليم وثقافة هذه القيادات غالباً ما كان موجهاً بواسطة أصحاب الكلمة العليا في المناطق التي تقطنها هذه القبائل ألا وهم المستعمرون. وكما ظهرت مدارس فكرية تحاول وضع وتحديد مفهوم للقبيلة من علماء غربيين وشرقيين نجد أن بعض زعماء هذه القبائل بما توفر لهم من تعليم لديهم آراء مختلفة بالنسبة للقبيلة : فالقبيلة في نظر كرومي نكروما<sup>(\*)</sup> Kwame Nkrumah هي شرح لميول عدم الذويان الاجتماعي Social Disintegration ، لذلك نجد أن دعوة نكروما لحل مشكلة القبيلة في غانا تنادي باستخدام الجهد التام أو الكامل للحد من التزعة القبلية للرجل الأفريقي القبلي. وفي سبيل ذلك فإن نكروما يجد أن نظام الحزب الواحد يمثل الوسيلة أو الاداة الوحيدة التي يمكن بها القضاء على التراكيبات القبلية والعمل على بناء

اتصالات متناقضة فعالة بين العناصر الغاية ذات الاصول والجذور القبلية المختلفة<sup>(١)</sup>.

وبالإضافة لفهم كوامي نكروما، فإن الباحث سوف يجد نظرية أخرى تعالج فكرة القبلية وتحمل اسم الزعيم الأفريقي المعروف كوفي بوسيا Kufi Busia أحد الزعماء الأفارقة والتي تعالج فكرة القبلية. ويؤمن بوسيا بأن القبائل تمثل قوى يجب أخذها في الاعتبار وأن الزعماء الأفريقيين يجب عليهم عدم محاولة خمد القبلية ولكن يجب عليهم البحث عن طرق لضمها في اطار نظرية البناء القومي.

وفي الحقيقة، فإن الفرق بين نكروما وبوسيا إنما هو نموذج مضمر للاختلاف الكبير والواسع بين الزعماء الأفريقيين حول مشكلة علاج القبلية. فثلاً هناك زعماء يشعرون بأن القبائل وفكرة الشعور القبلي التي نتجت عنها يجب القضاء عليها من خلال بناء تنظيمات الحزب الواحد<sup>(٢)</sup>. إن هؤلاء الزعماء يمثلون الفئة التي تعتبر أشد عداء لحراس الشخصية القبلية. بينما نجد أيضاً في الطرف المقابل هذه الفئة المحافظين على الشخصية القبلية، وهذه المجموعة تعتبر في حالة دفاع دائم عن فكرة القبلية وأثرها، في سياسات المجتمع الأفريقي، ومن هذا المنطلق الفلسفي فهي تبنى دفاعها عن الشخصية القبلية بأن معظم الناس، أفريقيين وغير أفريقيين يسيئون فهم قصدهم بالدفاع عن الشخصية القبلية، لذلك فهم يقولون بأن القبائل يمكن أن توجد وتعيش في المجتمع الأفريقي بدون بناء وتنمية فكرة القبيلة.

إن هذين الوضعين اللذين يسيطران على الفكر الأفريقي في الوقت المعاصر بالنسبة لفكرة القبلية له مزاياه ومساوئه عندما ينظر إليه من خلال نظرة البناء القومي. لذلك فإنه يمكن القول بأن وجهة معارضي فكرة القبلية صحيحة، لأن تشجيع الشعور القبلي يفتح باب المشاكل، الذي يشمل محتويات خطيرة ومبمته للدولة الناشئة. إن هذا القول صحيح لأنه إذا كان أعضاء القبائل المختلفة غير متساوين اقتصادياً، فإن فرص القبائل الأكثر حظاً للسيطرة على غيرها من القبائل سوف تزداد. وتحت هذه الظروف، فإننا نجد القبلية تضع الوطن في حالة حصار، لذلك فإن الخلافات والترعات المستمرة ستتمو إلى درجة تهدد أسس الدولة، وستخفي بذلك جميع الآمال لتوحيد هذه القبائل وتموت. في الحقيقة فإننا نجد في هذه الحالة، أن القبائل

الافل حفظاً تستخدم القبلية فقط كفتاع تخفي خلفه الموضوع الرئيسي الذي يشغل بالها، والذي سيكون محوره الاقتصاديات

إذا نظرنا إلى فكرة القبيلة من وجهة نظر مؤيديها أو أنصارها فإن الفرد يمكن له القول أيضاً بأن وجهة نظرهم تحتوي على نقطة تستحق التفكير والدراسة. إن الحقيقة العلمية التي تقول بأن الانسان يعيش في عالم يشتهر بالابعاد المتعددة Multi-dimensionalality تجعل من الضروري أن يكون له هويات متعددة Compartmentalized Identities. وماذا يقصد من هذا القول إن الانسان يمكن أن يكون ايوو Ibo ونيجيريا Nigerian معاً<sup>(٨)</sup>.

وفي ضوء هذه المناقشة فالتا نستطيع الذهاب في القول بأنه لا يمكن للرجل القبلي The Tribal Man أن يفصل بين التزاماته القبلية والتزاماته للدولة فإن حالته الذهنية حيث لن تكون أبداً مسرحاً للمشاعر المتنازعة. ولكن لكي يمكن الوصول إلى هذه الحالة النفسية السليمة، فإن تنظيمات الدولة يجب أن تقام على أسس ادارية متينة. بمعنى آخر. فإن كل جزء من أجزاء المجتمع، مهما كان صغيراً، يجب أن يجد دوراً يلعبه في بناء الامة، وأن جميع الاجزاء يجب أن تتعاون من اجل دفع عجلة التقدم والتطور تحت الرعامة الرشيدة. ان مجموعة هذه النقط النظرية التي شرحتها سبق أن تم معالجتها وصدر بصدها دراسات علمية مستفيضة في الماضي من علماء مثل بتل Bentley، سيمور مارتن لىست Seymour M. Lipset، كوسر Coser، والبروفسور ارند ليجفهارت Arend Lijphart. ان العلماء الثلاثة الأوائل، بتل، سيمور مارتن لىست وكوسر. يحدثونا بأنه في المجتمع الكبير الواسع الاستقرار ينمو فن الحقيقة التي تقول بأن كل عضو في المجتمع له انتماءات متعددة Multiple Affiliations. فبالنسبة هؤلاء العلماء، فان مثل هذا التنظيم يسهل عملية الذوبان الاجتماعي Social Integration حتى تحاول العمل على تحييد الفرد وتمنعه من استخدام طاقاته الجسمية الذهنية والعاطفية لتقوية انتماء معين<sup>(٩)</sup>.

غير أننا نجد أن دراسات البروفسور ليجفهارت لها احتمالات تطبيق في المجتمعات المنقسمة قبلياً. ان هذا العالم الامريكي يقول في نظريته إن مثل هذه المجتمعات يمكن

لها أن تكون مستقرة فقط لو أن الاعيان والقادة استطاعوا ممارسة عملية الاخذ والعطاء على المستوى القيادي. ولكن في سبيل شرح نظريته، فإن البروفسور ليجنهارت يضع شروطاً كثيرة. فهو يشترط أن الوحدات الصغيرة في هذه المجتمعات الكبيرة يجب أن تتمتع بنوع من اللامركزية الإدارية، أي أن قادة هذه الوحدات الإدارية يصبحون اداة الربط بين مركز الدائرة والوحدات. أي أن ولاءهم للنظام القائم يصبح غير مشكوك فيه<sup>(١٠)</sup>.

وفي ضوء هذه الافتراضات النظرية للعلماء الذين أشرنا إليهم، يستطيع الباحث أن يصل إلى نقطة يرى منها القبائل الأفريقية في ضوء جديد. فلو أن رجال القبائل الأفريقيين يرغبون في المحافظة على كل من ذاتهم القبلية National Identity ، وذاتهم القومية Tribal Identity فانه يجب عليهم أن يتكلموا اللغة التي يطلق عليها البروفسور ارند ليجنهارت .. الديمقراطية المزدوجة Consociational Democracy ولو أن أعداء القبلية مثلاً، يرغبون في القضاء على قواعد وركائز القبلية في مجتمعاتهم، فانه يجب عليهم أيضاً تطوير القاعدة الاقتصادية الاجتماعية Socio- Economic Base لمجتمعاتهم بسرعة. لانه فقط خلال التعديل الحذري لهذه القاعدة يمكن للانتماءات المتعددة من أفراد شعوبهم أن تتطور.

القبلية : بناء على ذلك. ليست بمرض لا يوجد له شفاء. فهناك يوجد كثير من الطرق الجراحية التي يمكن استخدامها. فلو أن الأفريقيين يريدون أن يريحوا أنفسهم من خطر وجود هذا الشبح، فانه يجب عليهم العمل في ضوء مقترحات الجراحين السياسيين. غير أنه يوجد هناك عامل آخر لا يجب اهماله، وهذا العامل هو خطورة الموضوع وحساسية العملية. فلو أن الأفريقيين يودون النجاح في هذا الميدان من ميادين التطور التي يعيشها العالم المعاصر، فانه يجب عليهم أن يعملوا أحسن من الأوربيين، الذين كان عليهم أن يقاتلوا حروباً رئيسة لكي يخلصوا مجتمعاتهم من هذا السرطان.

ولقد اهتم ليفين<sup>(١١)</sup> بالكشف عن القوى التي تؤثر على المجتمع القبلي واستخدم الاسلوب التجريبي العملي في الوصول إلى نظريته عن ديناميات الجماعة القبلية، وقد



استطاع ليفين أن يدرس بعمق ديناميات الجماعة القبلية كقوى وحقائق وعوامل تتصل بوجودها الواقعي مثل عوامل تكوين القبيلة وعوامل تشكيل سلوك أفرادها وجماعاتها وعوامل تماسك أفرادها وتلاحمهم والصراعات التي قد تنشأ بينهم والمعايير والقيم التي يمكن البحث عن وسائل تجعل منها أموراً ذات فاعلية في تحديد مستقبل القبيلة. ومن هنا تنشأ في ذهن الباحث مجموعة من التساؤلات الأساسية عن حياة المجتمع القبلي ... ومن هذه التساؤلات :

— ماهي الأسس التي تحدد الظروف التي تنتج آثارها الفعالة في تكوين حياة القبيلة ؟

— ما الذي يدعو إلى مقاومة التغيير في حياة القبيلة وفي عادات أفرادها وفي تقاليدهم المتوارثة ؟

— كيف يمكن أن نحدث تغييراً في حياة أفراد القبيلة وماهي الضمانات الكفيلة بنجاح مثل هذا التغيير ؟

— ما هي أنماط القيادة التي تمارس في مجتمع القبيلة سلطاتها التي لا حدود لها وتجعل كلمتها هي الوحيدة النافذة ؟

— ما هي العوامل التي تدعو إلى ترابط أفراد القبيلة وتماسكهم ؟

كيف يمكن أن نصل إلى عخطط واضح المعالم لتنفيذ عمليات الصهر والاذابة للمجتمع القبلي في المجتمعات المستقرة أو المتحضرة ؟

وبقصد الباحث من الانصهار أو الذوبان Integration أن الذوبان القومي تعني إقامة شبكة اتصال اجتماعي Social Communication Network ان المتحدث العظيم لهذه المدرسة كارل دويتش Karl Deutsch ، البروفسور الجليل بجامعة هارفارد. ان عملية الذوبان الاجتماعي بالنسبة للبروفسور دويتش هي حالة وعظومات. فهي حالة تمثل في حد ذاتها الإنتاج النهائي للانصهار الذي يظهر بعد عدة عمليات متسلسلة. ففي كتابه : Nationalism and Its Alternatives الصادر في عام ١٩٦٩ م. نجد البروفسور دويتش يستخدم الوثائق بأسلوب علمي أخاذ، ليرينا

كيف أن الاوربيين تطوروا إلى دول قومية منفصلة<sup>(١٢)</sup>. فهو بحثنا في هذا الكتاب على ان الانصهار الوطني يصبح ممكناً بعد اتخاذ ست خطوات أو عمليات بين مجموعة من السكان يقيمون على منطقة معينة من الأرض، وفي ضوء هذا نجد البروفسور كارل دويتش يسجل الخطوات الست كما يلي :

- (أ) تطوير الدول.
- (ب) تطوير وسيلة الاتصال الغير منظورة — أي اللغة.
- (ج) علمية الذوبان الاجتماعي للقادة.
- (د) عملية الذوبان الاجتماعي للقبائل.
- (هـ) عملية تطوير فكرة الامة من خلال الاتصال الاجتماعي.
- (و) عملية الذوبان السياسي للاداة الحكومية.

لذلك نجد أن فكرة الاتصال الاجتماعي تصبح حجر الاساس لفهم نظرية البروفسور كارل دويتش عن الانصهار أو الذوبان الاجتماعي. ان هذا العالم يؤمن بأن فكرة الاتصال الاجتماعي تكون القاعدة الاساسية للذوبان السياسي للمجتمع. إن عملية كهذه تجعل من الممكن لاجزاء المجتمع أن يتصلوا ببعضهم البعض في موضوعات ذات أبعاد واسعة. كما أنها تعطيهم أيضاً الاحساس بشعور المحبة المتبادل الذي بالتالي يدعم عادة الاتصال الاجتماعي. ان الانصهار الاجتماعي في نظر الاستاذ كارل دويتش. عبارة عن عملية مستمرة أي أن المجتمعات تختلف في مراحل تطورها وتقدمها لشبكة الاتصال الاجتماعي<sup>(١٣)</sup>.

وإلى جانب المدرسة التي يمثلها البروفسور كارل دويتش، فانه يوجد علماء آخرون عالجوا هذه المشكلة. فالمدرسة الثانية، تضم علماء مثل سيمور مارتن ليست Seymour M. Lipset ، جيمس كولمان James Coleman وغيرهم، ترى أن الانصهار أو الذوبان الاجتماعي يمكن تحقيقه عندما يتمتع أفراد المجتمع بالانتماءات أو العضوية المتعددة، ويوافقون أيضاً على قوانين اللعبة السياسية. فمثلاً نجد سيمور مارتن ليست في كتابه التحرك الاجتماعي في المجتمع الصناعي Social Mobility in Industrial Society الصادر في عام ١٩٦٢ م ، يقول إنه يجب

الاعتناء بفكرة الانتماءات المتداخلة في المجتمع ، لانه يعمل بالافتراض بأن الذوبان السياسي يتم بنجاح عندما يتم ربط أعضاء المجتمع مباشرة بالنظام السياسي عن طريق عملية الانتماءات المتعددة<sup>(١٤)</sup>.

أما المدرسة الثالثة، والتي يرأسها البروفسور أرتد ليجهفهارت، ترى أن الذوبان يمكن تحقيقه كنتيجة لسياسة الأخذ والعطاء بين غالبية المجتمع عند مستوى القيادة. ان البروفسور ليجهفهارت يناقش نظريته في كتابه سياسات الأخذ والعطاء The Politics of Accomodation الصادر في عام ١٩٦٨ م. فيقول بأن الذوبان الاجتماعي يمكن تحقيقه اذا ما استعملنا النموذج الديمقراطي المزدوج<sup>(١٥)</sup>

#### Consociational democracy model

بعد القيام بهذه الرحلة السريعة بين أعضاء عائلة الانصهار الاجتماعي حيث امكن لنا أخذ فكرة سريعة عن مدارسها المختلفة، فانا الآن ستعيد عدسة جهازنا مرة أخرى لنسلطها على تاريخ المملكة العربية السعودية لكي نتمكن من شرح التجربة السعودية لانها تتصل بطريق مباشر بمشكلة الذوبان الاجتماعي في أفريقيا وفي أي دولة أخرى نامية.

غير أن هناك مجتمع واحد استطاع أن يتعامل مع هذه المشكلة بطريقة حاسمة وشاملة. أن المملكة العربية السعودية تم تأسيسها كدولة متطورة متقدمة تحت زعامة المغفور له الملك عبد العزيز في سبتمبر عام ١٩٣٢ م. ان الدارس لتاريخ المملكة العربية السعودية في ذلك الوقت يجد أنها كانت تتألف من أربعة مناطق جغرافية وعدد كبير من القبائل الرئيسية والفرعية. لكن طالب تاريخ المملكة العربية السعودية المعاصر سيجد أنه لا يوجد هناك أي مشاكل قبلية كما أنه لم يكن هناك أيضاً أية إبادة جماعية للقبائل، كما نعرفها في دراستنا لنظام الحكومات المقارنة ونقرأ عنها في صحف العالم المختلفة. ان عملية الذوبان الاجتماعي كما يعرفها علماء العلوم السياسية اليوم. قد تمت بنجاح في المملكة العربية السعودية إلى درجة أن الادارة الحكومية Bureaucracy قد ملئت بأبناء المناطق الأربع بما فيها جميع القبائل. وأن جميعهم قد تم تعليمهم بدرجة متشابهة بل وشجعوا عليه. إن تحول Transformation مجتمع الجزيرة العربية من حالته السابقة التي انصفت بالتفرقة



والارتباك إلى شعب اليوم المستقر الآمن والمناسك يمكن أن يرجع فضله إلى المغفور له الملك عبد العزيز والقيادات السياسية المتعاقبة. ولكن لكي يمكن لنا أن نفهم التجربة السعودية في هذا الميدان. فإنه يجب أن تدرس الخطوات التي اتخذت في إطار نظرية الذوبان وكيف تم انشاء المملكة العربية السعودية. لربما أن هذه الدراسة التحليلية ستساعد أخواني الأفريقيين. علماء وقادة.

#### التجربة والسعودية :

ولكي نفهم هذه التجربة فهماً عميقاً وصحيحاً فإنه ينبغي علينا التحدث عن موضوعين مهمين أولاً: عبقرية المغفور له الملك عبد العزيز. وثانيهما عملية الذوبان القومي التي تمت خلال حياة هذا القائد العبقرى.

أولاً : عبقرية الملك عبد العزيز :

ان التاريخ يحدثنا ان الملك عبد العزيز قد توفرت فيه جميع معايير Criteria الزعيم العبقري Charismatic Leader أن ماكس وبر Max Weber العالم الألماني الذي كتب كثيراً عن هذه النظرية. يعرف العبقرية في كتابه المشهور العبقرية والبناء الإداري On Charisma and Institutions-Building الذي ترجم إلى الإنجليزية بواسطة اس. ان. ايزن استادت S. N. Eisenstadt في عام ١٩٦٨. فيقول بأنها صفة معينة لشخصية فرد ما التي بفضلها أصبح مميزاً عن الرجل العادي وعمل طبقاً لذلك وكأنه منح مزايا استثنائية<sup>(١٧)</sup>. ان هذا التعريف يقودنا إلى الاعتراف بأن إنجازات المغفور له الملك عبد العزيز جعلت منه عملاقاً بين الرجال .

إن قدرته الباهرة للتعامل بنجاح مع الموضوع العظيم الذي يهدف إلى توحيد عناصر الجزيرة العربية المحبة للحروب والغير اليقظة ورحته فضلاً لدور الانسان الذي تجاوز حدود الانسان العادي. ان هذا الجانب المضيء من حياة المغفور له الملك عبد العزيز قد ناقشه مؤرخون كثيرون امثال أمين الريحاني<sup>(١٧)</sup> Ameen Rihani ، العالم السوري — الامريكي، في كتابه صانع الجزيرة العربية الحديثة Maker of Modern Arabia ، جون فيلي John Philby في كنبه العديدة والتي منها كتاب المملكة العربية السعودية Saudi Arabia<sup>(١٨)</sup> وفان در ميلون Van der Meulen الدبلوماسي الهولندي الذي كتب كثيراً عن التجربة السعودية والذي من بينها كتابه وصايا ابن سعود<sup>(١٩)</sup> The Wills of Ibn Saud ، ومن دراسة أعمال هذه الاسماء العظيمة المتخصصة في دراسات الشرق الأوسط نستطيع أن نقول إن جوهر العبقرية يمكن تحديده في ضوء قدرتها على تضيق الفجوة بين الغايات العامة للقائد المؤسس وبين الوسائل المحددة المتاحة له. بمعنى آخر أن القائد العبقري يمكن أن يكون عاملاً حاسماً في عملية البناء القومي.

إن البروفسور دانكورت روستو Dan Kwart Rustow يجربنا في كتابه فلاسفة وملوك: دراسات في القيادة Philosophers and Kings: Studies In Leadership أن الزعيم الناجح يجب أن يعرف الماضي ويكون قادراً أيضاً على استخدام الماضي البعيد كحليف ضد الماضي المباشر<sup>(٢٠)</sup>. فثلاً عندما ندرس حياة المغفور له الملك عبد العزيز

نجد أنه عرف دروس التاريخ معرفة جيدة، وأنه مثلاً استخدم تاريخ الأسرة السعودية البعيدة لكي يتحدى ادعاءات الغير للاستيلاء على الحكم في نجد بل في الجزيرة العربية بأسرها.

ان دراسات البروسور داتكورت روستو تشير إلى أنه يوجد هناك عدة طرق ووسائل تساعد القائد والزعيم على تنظيم جهود الآخرين وهذه الوسائل هي : البعد Detachment، المساهمة والمشاركة Involvement، الاتصال Communication، الاختراع أو الابتكار Innovation تصور التغير المستمر Perception of Ongoing Change.

وفي ضوء رأي البروفسور داتكورت روستو يمكن لنا تطبيق الوسائل التي أشار إليها في ضوء المعلومات التاريخية عن المغفور له الملك عبد العزيز فترة البعد والاعترا ب :

ان هذه الفترة كما يحدثنا التاريخ، كانت عبارة عن تلك الفترة التي قضاها جلالة الملك عبد العزيز في صحابه، خارج بلاده بعيداً عن عشيرته وأنصار عائلته، حيث قادته إلى التأمل والتفكير العميق في المجد الضائع لعائلته، مما خلق في نفسه تصميماً قوياً على استعادة ذلك المجد الزاهي، وبذلك أدت هذه الخطوة إلى مرحلة المساهمة أو المشاركة.

### الاتصال :

ان هذه الوسيلة كانت في بداية نضال الملك عبد العزيز لاسترداد ملك أجداده، وتأسيس حكم يرجع إلى الجزيرة العربية عزمها، في شعور واحساس الصحراء، عن طريق الرحلات والمحطبات الشفهية. ولكن هذه الوسيلة سرعان ما تطورت وأخذت شكل الآلات الحديثة في عالم الاتصال، وهذه تتمثل في الاستخدام الواسع للتليفون، التلفاز، السيارة، الاختراع أو الابتكار.

ان هذه الوسيلة قد ناقشها كثير من المؤرخين وأساتذة العلوم السياسية كما اني سأحدث عنها خلال مناقشتي لعملية الذوبان الوطني للتجربة السعودية. على أية

حال، فإن التركيز سيكون على مشروع تعليم أبناء الجزيرة العربية الذي يهدف إلى تجسيد قدراتهم وتحويلها إلى أداة فعالة في بناء صرح الامة السعودية.

### التصور للتغير المستمر :

ان الكاتب الانجليزي جون قبلي كتب منذ سنوات طويلة بأن المغفور له الملك عبد العزيز كان دائم التفكير والتأمل، غير قانع باتباع الطرق العادية كما يفعل الكثيرون. من هذه العبارة نستطيع أن نستنتج أن الملك عبد العزيز كان دائماً مستعداً ومتأهباً للظروف التي تملح الحاجة للتغيير.

### ثانياً : عملية الدوبان الوطني والجزيرة العربية :

ان التاريخ يحدثنا تفصيلياً عن الوضع السياسي في الجزيرة العربية قبل استيلاء الملك عبد العزيز عليه، فيصفه بعدم الاستقرار الناتج عن الحروب القبلية المستمرة. بمعنى آخر أن الحروب كانت عادة ولم تكن استثناء. كل قبيلة كانت مستعدة لأن تستخدم كل قوتها التدميرية ضد الاخرى لتحقيق مصلحتها القبلية. لذلك يقول المؤرخون السياسيون بأنه لم تكن هناك سلطة مركزية قادرة على اقامة نظام مستقر قائم على اتباع القانون (الشريعة) في ذلك الجزء من العالم. لكن العبقرية التي تمتع بها المغفور له الملك عبد العزيز جعلت من الممكن لعرب الجزيرة العربية أن يتطوروا إلى أمة بطريقة آمنة وبناءة. إن قصة نجاح الملك عبد العزيز تقوم على الاجراءات التالية التي قام باتخاذها :

- ١ — استخدام عبقريته في جميع العناصر التي تؤيده لاقامة ميكانكية سياسية يمكنها تطوير شعور عدم الراحة للبدو.
- ٢ — بعد اقامة اجهزة الدولة وتنظيمها إدارياً فإن المغفور له الملك عبد العزيز استطاع أن يطهر المناطق الجغرافية المختلفة في اطار مملكته عن طريق جمعها تحت سقف سياسي واحد.
- ٣ — ان جهود الملك عبد العزيز في بناء الدولة قادت إلى اقامة انظمة

للتعليم والمواصلات التي كان دورها بالتالي فعّالاً وذا أبعاد واسعة على التركيب الحكومي الحالي .

### نظام التعليم كعامل فعال في عملية الذوبان القومي :

إن تاريخ التعليم في الجزيرة العربية، قبل عهد الملك عبد العزيز، يشير إلى أنه لم يكن يوجد هناك إدارة للتعليم بمعناها الحديث في الجزيرة العربية. فالتعليم الحديث كان مركزاً في المدارس الخاصة، كما يقول الأستاذ خير الدين الزركلي في كتابه الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز، وأن هذه المدارس كانت مقامة في منطقة الحجاز<sup>(٢١)</sup>، غير أنه تم إنشاء أول إدارة للتعليم في مكة عام ١٩٢٦ م.

وقد مرت الثورة التعليمية التي فجر طاقاتها المغفور له الملك عبد العزيز في الجزيرة العربية بمراحل متعددة، كان من نتائجها بصفة عامة ان ظهرت بالمملكة أربعة أنواع من التعليم :

- ١ — مدارس رسمية في المدن والقرى.
- ٢ — مدارس دينية في أماكن توطين البادية والقبائل.
- ٣ — بعثات تعليمية في الخارج لتلقي المواد التي لم تتيسر في الداخل.
- ٤ — مدارس خاصة.

إن الجدول التالي سوف يعطينا صورة واضحة عن أبعاد هذه الثورة التعليمية التي نعيشها اليوم. لقد اخترت المدة ما بين عام ١٩٥٠ وعام ١٩٥٣ لأنها في نظري تمثل ذروة الثورة التعليمية في عهد الملك عبد العزيز رحمه الله.

| السنة | مدارس | مدرسون | طلاب  |
|-------|-------|--------|-------|
| ١٩٥٠  | ١٤٦   | ٦٤٣    | ١٦٠٢٩ |
| ١٩٥١  | ١٩٦   | ٩٤٣    | ٢٣٨٣٥ |
| ١٩٥٣  | ٣٢٦   | ١٦٥٢   | ٤٣٧٣٤ |



ان افواج المتعلمين من الشباب السعودي قد أعطى الآن الإدارة الحكومية فرصة لأن تتطور وتصبح أداة فعالة لتحقيق الذوبان القومي في المملكة العربية السعودية.

### الإدارة الحكومية والذوبان القومي :

يجمع المؤرخون على أن جلالة الملك عبد العزيز كان مسيطراً تماماً على الجزيرة العربية قبل عام ١٩٣٢. ولكن اتساع حكمه جعل من الصعب على رجل واحد أن يدير إدارة حكومية واسعة. وعندما بدأ يبحث عن أشخاص لتقلد الإدارة الحكومية، فإن جلالة الملك عبد العزيز بدأ يواجه مشكلة النقص في السعوديين الكفاء. لذلك يقول المؤرخون إنه اضطر إلى توظيف بعض الخبراء من الدول العربية. ومما تكن قدرة هؤلاء الخبراء. فإن جلالة الملك عبد العزيز عرف تماماً أنه من الضروري جداً العمل على وضع ابناء أمته الجديدة في امكنتهم. وكان التوسع في التعليم هو حله الوحيد لهذه المشكلة.

وكما يعرف القاري الكريم أن المناطق الأربعة المكونة للمملكة، نجد، الحجاز، المنطقة الشرقية وعسير، كانت تختلف إدارياً، غير أنها وحدت طبعاً عن طريق ولايتها للملك عبد العزيز. الذي تم تحقيقه بفضل صفاته العبقريّة. وقد تنبه جلالته إلى أن غالبية أعضاء الإدارة الحكومية التي لم تأت من الخارج جاءت من الحجاز لأن جميع المدارس في البلاد كانت موجودة في تلك المنطقة. لهذا عمل على تفادي ذلك بإنشاء المدارس الابتدائية والثانوية في المناطق الأخرى لمحاولة رفع المستوى التعليمي لابنائها، لكي يجعلهم يبدؤون رحلتهم على طريق التقدم والتطور.

غير أن المجتمع السعودي بدأ يأخذ طريقاً إدارياً جديداً وهو سائر على طريق التطور والتقدم عندما بدأ الزيت في الإنتاج وتصديره إلى الخارج وبالتالي تدفق المال إلى الداخل. ان هذا التطور يمكن ملاحظته في اقامة الوزارات الحكومية. فمثلاً قبل عام ١٩٥٠ كان يوجد في المملكة ثلاث وزارات : المالية، الخارجية، والدفاع. ولكن خلال الفترة من ١٩٥٣/١٩٥٠ تم اضافة خمس وزارات هي : الداخلية،

المواصلات، الصحة، التعليم، والزراعة، بالإضافة إلى مديرتي شؤون الزيت والمعادن والعمل والمال.

من الدراسة السابقة يمكننا القول بأن الانصهار القومي هو العنوان الرئيسي الذي يتضمن جميع أشكال الذوبان القومي. لذلك فإن الذوبان القومي هو العملية التي تؤدي إلى ربط العناصر المختلفة في داخل مجتمع ما بالأنظمة السياسية، الاقتصادية، الثقافية والاجتماعية للمجتمع.



المراجع :

1. W. E. Abraham : *The Mind of Africa*, (London, 1962).
2. J. S. Mbiti : *African Religions And Philosophies*, (New York, 1963).
3. Archie Mafeji : *The Ideology of Tribalism*, *Journal of Modern African Studies* (1971).
4. Mbiti : op. cit.
5. Kwame Nkrumah : *Africa Must Unite*, (New York Praeger, 1963).
6. I. Wallerstein : *Africa, The Politics of Independence*, (New York, Vintage, 1961).
7. Ali Mazrui : *Political Values And The Educated Classes in Africa*, (Berkeley University of California Press, 1978).
8. Seymour Martin Lipset : *Political Man*, (New York, Doubleday, 1968).
9. Arend Lijphart : *The Politics of Accommodation*, (Berkeley University of California Press, 1968).
10. Kurt Lewin : *Field Theory in Social Science*, (New York, Harber & Bros., 1951).
11. Karl Deutsch : *Nationalism & Social Communication*, (Cambridge MIT Press, 1966).
12. Karl Deutsch : *The Nerves of Government*, (New York Free Press, 1963).
13. Lipset, op. cit., James Coleman and Gabriel Almond : *The Politics of The Developing Areas*, (Princeton : Princeton University Press, 1960).
14. Lijphart, op. cit.
15. Max Weber : *On Charisma And Institution Building*, ed. S. N. Eisenstadt, (Chicago: University of Chicago Press, 1968).
16. Ameen Rihani : *Maker of Modern Arabia*, (Boston Houghton Mifflin, 1928).
17. H. St. John Philby : *Small Arabia*, (New York Praeger, 1955).
18. D. Vnn Der Meulen : *The Wills of Ibn Saud*, (New York, F. Praeger, 1957).
19. Dan Kwart Rustow : *Philosophers & Kings*, (New York, George Braziller, 1970).
20. خير الدين الزركلي، *شبه الجزيرة في عهد الملك عبد العزيز*، (بيروت : مطابع دار العلم، ١٩٧٠ م).
21. م. ت. صادق، *تطور الحكم والإدارة في المملكة العربية السعودية*، (الرياض ١٩٦٥ م).